الشيء الذي يباع

قصة بقلم م . زيتون

[مهداة الى اختي التي سأعود فالاقيها بجرأة ووضوح ،
عندما أعود من معركة اليوم الذي لا يبـاع]

انني اسمع الآن ضجة الاكياس وهي تردم في الشاحنات ، واسمع صافرة القطار وهي تتشدق باصوات مرعبة كأن شيئاً ما من المتوقع ان يحدث فجأة . وكانت الريح تحمل اليّ بين الحين والآخر رائحة دخان القطارات والزيوت واصطفاق الحديد الرتيب ...

وكان الليل يمر من حولي حاملاً الخوف والرهبة والتوقع . وكنت أحس انني أعيش في نفق من أنفاق مناجم الفحم وانني اشهد علي مقربة مني حمالاً يحمل متاعاً مجهولاً كبير الحجم يتنفس تحتـه بصعوبة ، ورائحة الخوف تسري في جميع الاشياء حولي ... مع خطواته ... وأعود فأسمع عن كثب صوت اصطفاق الآلات الرتيب وضجة الاكياس وهي تردم في الشاحنات ... فاتذكر انني قد بلغت غايتي ... وانني لا ابعد عن المنزل المنشود اكثر من عشر خطوات . حيث محطة القطار .. ومنزل أختي الذي هو من القش والطين والتوتياء !

انه منزل أختي ما في ذلك شك ...

وبجانبه شخص ينتظر ...

واني وان كنت لا اعرفه من قبل واثق من انـه منزل اختي الذي ذكر ووصف لي جيداً . وهذا الضوء الكئيب الذي يتذبذب من خلال شقوق باب التوتياء المتخلع لن يكون الا ضوء منزل أختي ... وصوت الطفل الصغير الذي يبكي لن يكون الا صوت ابن اختي ...

والى جانب الباب شخص من اللحم الدنيء ينتظر بفارغ الصبر ...

ان العجـوز التي ارشدتني الى مكان اختي قالت لي: « انها تقطن منزلاً وضيعاً من الطين الى جانب السكة الحديدية . وان عمال السكة الحديدية قد سمحوا لهـا بالعيش في ناحيتهم ولكن ... لست اعلم لماذا ..! ولكنها عـلى اية حال تعيش هناك .. وما من شأني الا ان أرشدك اليهـا .. » وغمزت ببعض الكلمات ..

ولكن قلبي انقبض فجأة .. متى كانت حياة اختي تفسر بغمزة غامضة.؟ قبل ست سنوات عند مـا كنت اساعدها في حل مسألة حسابية ، وكانت تدرس الشهادة الابتدائية ؛ كانت تتضايق من هـذا النوع الرتيب من المسائل : باع تاجر .. اشترى تاجر .. وكانت تسألني بقرف : « يا أخي لشد ما أنا متضايقة . لماذا كل شيء يبدأ وينتهي بالتجارة .. لقد باع .. ولقد اشترى .؟ »

وكنت أنا مثلها اكره الحساب وانزع الى الادب .. لماذا .؟ ان كل شيء يباع .. واحياناً يا أختي يباع الشرف ..

ولكن العجوز لكزتني مشجعة : « ستراها .. انها لا تغادر عشها الا نادراً .. » وكانت في ذلك الوقت دمـاء قلبي تنزح محدثة فسحة جافة في زاوية صدري تطأ فيها أقدام قاسية من الخوف والعار .. لكن شيئاً من حولي لم يقف ... وبقي كل شيء يسعى الى غايته متجاهلاً الفسحة التي في زاوية صدري . متجاهلاً قصتي وألمي ... وحياة أختي ...

وسلكت الطريق التي أشير اليّ باتباعها نحو البلد الآخر الذي تعيش فيه أختي . وخطرت في نفسي ذكريات ما قبل ستة اعوام بـكاملها ... وكنت أنسى احياناً انني معفر بدم الخاطر الكريه . وكنت ابتسم دون وعي بين كل عقدة واخرى من هذا الحبل الطويل من الذكريات .. واخرجت دون وعي ايضاً بقايا الارغفة الثلاثة التي كنت اشتريتهـا لي و«ماجد» صباح هـذا اليوم قبل ان ولجت وحدي داخل الحدود السورية .. ولست أظن أنني تذكرت « ماجد » الذي حاز إعجاب المعلم « رينيه » في الورشة ، لأنني كنت مدفوعاً الى تذكر الاشياء التي تمس اختي دون سواها . وأفقت على نفسي وأنا ابتسم لذكرى سذاجة اختي .. في التاسعة ، عندمـا كانت تصدق ان الديك هو الذي يبيض وليست الدجاجة، وكانت جدتي تعطيها ديكاً لتؤمن على بيض الدجاجات . فتبقى اختي تنتظر اسبوعاً او اسبوعين كي تحظى ببيض الديك ..

وكنت أتعثر بالواقع وأتذكر كيف غمزت العجوز من جـانب اختي فيصعد الدم الكريه الى وجهي ؛ ولكن الزمن يبقى ككيس من القماش الأصفر يبتلع الساعات كأنها نقود لا فرق بينها .. وكانت ايضاً خطواتي تبتلع الطريق والحجارة والشوك يحدوها امل لا لون له . ليس هو أمل الثأر . ولا هو أمل العتاب . ولا أمل التواطؤ والعار .. كنت خائفاً .. وملوثاً .. وحاقداً .. ولكنني كنت آمل ان ارى اختي اولاً ..

والآن لقد وصلت.. هـذه محطة القطار . وكنت ارى قبـل الغروب الحمالين ببدلاتهم السوداء القذرة كالبغال يحملون اكياس الحبوب المنتفخة كالنعاج الميتة وينضدونها في الشاحنات ..

وفي هذه اللحظة لا اسمع سوى الاكياس تردم في رتابة، وصافرة القطار تتنفس في غضب وكذلك اصوات بعض العمال يقولون : « الى الشاحنـة الثانية .. هيا اسرعوا .. هـذا المطر سوف ... » وكذلك خطواتي المترددة ، وقلبي المنقبض الخائف .. والرجل الذي هو من دم ولحم دنيء يقف الى جوار منزل اختي ينتظر بفارغ الصبر ..

وبين الحين والآخر انتفس رائحة الدخان والزيوت والبخـار والقاذورات فتختلط جميعها مع نفسي وتشكل جسماً لزجاً كريهاً كالشحم فيغرقني بالعار والتردد .. ولكن لم يبق سوى عشر خطوات وصوت ابن اختي يجذبني اليه عندما يبكي .. ولكني جبنت لبضـع ساعات .. وكانت اشباح منزل اختي تتبدل كرؤى مخجلة ..

— لا .. لسوف انتهي سريعاً ايها الاخ .. لا .. ليس كما تظن ايها الاخ .. سأتكلم باختصار .. سريعاً ايها الأخ .

— لا .. لن تدخل .. ان لي عمـلا ... ان لي عملا . ومن تراك لتأخذ دوري ? ..

— دورك ! .. صحيح انه دورك ..

وبصقت على الارض .. وكان الباب يفتح من الداخل .. أي صورة

ستعود الى ذهني .. ؟ الجبهة السمراء والعنق الحبيب المعشوق والسمات النجيبة .. وخلاصة اختي القديمة .. كل ذلك سيمر امامي مستهتراً مشوهاً. لكنني سأرى جيداً .. سأرى الى ابعد ما يظن هؤلاء ولسوف أغفر كل شيء فليس لي رغبة في الثأر.... ولا بالانتقام ... أنسّى لي أن اشوه الصورة التي احبها .. واجلوها بذهني .. لماذا .. ؟ انها لم تكن اكثر من صورة عني وعن امي التي ماتت وهي تمسح خدي المصبوغ بالدم المتوعد ..

سوف امر بروحي على سماتها المستهترة وسأرى ما اذا كانت لا تزال جبهتها السمراء ترضيني لاستدارتها الرشيقة . ولسوف ارتبك لهذا التبدل – ان كانت حقاً قد تبدلت – .. ترى ماذا في ذهنها من مسائل الحساب القديمة ..؟

« التاجر لماذا يبيع ويشتري . ؟ »

– « ايها الاخ .. انني متضايقة : لماذا .. لقد باع ... ولقد اشترى .. ؟ »

– « لماذا .. ! ان كل شيء يباع .. حتى الشرف يباع يا اختي .. »

والآن .. هذا الشيء الذي انزلق داخل جمجمتي وكاد أن يشطر دماغي ..

لماذا يكون الضحك حاداً ولئيماً الى هذا المقدار؟ حتى صوت المزلاج يفجر الشرايين .. الضحك .. الضحك .. شيء مستطيل .. كوتر خليع ..

وباب التوتياء يضحك كلحن وضيع شامت .. ولكنني لن أفقد روعة اللقاء . وان كان لي ان أعبر عن سعادة الوصول الى اختي .. فسأخبط بقدمي على الارض لاصنع في التراب الارتباكة الحبيبة التي ستغمرني فجأة ، ولن اقول شيئاً ..

ولن أصدق بشيء البتة.لانه سينطفيء آخر نور في عيني ... ولكنني سأحس بخلاصة اختي تحت قدمي المرتبكة.. وسوف ارى الجبهة السمراء المشوهة قليلا – قليلا جداً – والعنق الرشيقة ، ومسائل الحساب المجدولة مع الشعرات . والتوتياء التي تضحك للخروج والدخول.. ولسوف تضحك لي ايضاً ان حاولت الدخول .. ولكن ضحكة كبيرة مستطيلة محدبة .. لانني انا « تيسير » وهي « سلوى » ولان لقاءنا كان هكذا فجأة دون موارية او اعداد .. وستنقطع الشهوة .. لان الليل كان في البدء ولأنني أنا « تيسير » ، ولان مسائل الحساب كانت هي الاخرى في البدء مغلقة ..

عندما قالوا لها ان اخاك تيسير قد مات .. مع من مات .. كانت في الخامسة عشرة ، ولم يكن احد من اهلها قد بقي حياً وكانت تهوى أن تنتصر قليلا ولو مؤقتاً . وكان مع ذلك اسمها « سلوى » وينبغي لها أن تعيش .. تعيش بوضوح كجميع من نزحوا معها وساروا هكذا باتجاهات غير واضحة ولكنهم كانوا – على اية حال – ملتصقين بالارض وكان يقال لهم بين الحين والآخر .. « هذه حدود .. » وينبغي ألا تدخلوا الحدود .. ان ذلك ممنوع .. اللهم الا اذا كنتم من هؤلاء .. هؤلاء لا حدود .. ويمكنكم ان تمشوا ملتصقين بالارض .. وكانت اختي ايضاً من هؤلاء ..

وكنت أنا ايضاً ..

ولكن الحدود التي دخلناها كانت مختلفة ..

وقالوا لها – كثيراً جداً – ان تيسير مات .. مع من مات من البشر ..

وباشرت اذذاك تبحث عن الوضوح .. كي تعيش كالجميع .. وبدأت تنحت لجبهتها السمراء ذات الاستدارة الرشيقة مكاناً في الظلام . ولكنها فشلت .. ولكن لماذا فشلت؟.« آ .. نعم لقد قالت العجوز انها فشلت..»

والآن .. انني اشعر جيداً بوطأة البرد . لم يكن قبل ساعات الا نسمة هواء .. أما الآن فان كل شيء من حولي لا يؤمن بنفسه .. كل شيء يكاد يقتلع عن قاعدته . وأنا لم أعد أثق بقدمي .. وأشعر أنني مجرد ورقة خريفية في مهب الريح ..

الريح .. الريح.. وصافرة القطار والزيوت ورائحة غاز الفحم كلها تختلط في كيان واحد مع نفسي وتشكل جسماً كريهاً كالشحم .

ولكنني أحسست انني اقتربت من الباب .. وانني استجلي بنظراتي اجساماً جامدة لا تنبض بشيء . ورأيت وجهها الذي ينحني على وجه طفل بريء ملفوف بقماش جامد هو الآخر الى جانب الفراش.. الملتصق بأرض الغرفة ..

وشعرت انني اطلت التحديق . وان نفسي تذوب في عتبة الباب وتنحل الى غازات كريهة متطفلة خجلة..

ولم اعرف كيف تم كل شيء في لحظة بسيطة . كل ما اردت قوله قد نضب واضمحل .. وكل شيء كنت انوي ان احتفظ به قد تساقط على هذين المخلوقين مع نظراتي الخجلة . وفقدت الكلمات التي ينبغي ان اقولها دون غيرها .. لم يكن بودي ان اعيد عليها هذه العبارة القاسية .. ان ذلك يهينها .. ويمس كرامتها . وانني احبها من كل قلبي وليس لي أن اجرح كبرياءها القديمة ..

لقد احسست انني تفوهت بشيء عبر لائق مع نظراتي الحاسرة الخجلى .. « ان كل شيء يباع .. حتى الشرف يا اختي يباع .. »

وقفلت راجعاً : . بعد ان تساقط كل شيء على جبهتها المستديرة السمراء وعلى منزلها الوضيع .. وطفلها الملفوف بالقماش الرديء، ودنست نظراتي المفرطة بالعتاب كل اثاث منزلها ..

ولكنني لم أبتعد حتى سمعتها تصرخ في اتجاه عبر الذي اتبعته :

– « تيسير .. يا اخي تيسير .. انت .. اين .. ألست انت تيسير .. يا اخي .. ألم تكن .. يا تيسير .. »

واجبتها في نفسي : « نعم يا اختي سلوى .. ولكنني انا نفسي لي عمل واضح .. ولقد وعدت ماجد الا اطيل البقاء ها هنا .. »

وكنت اسمع – الى الجانب الآخر من المحطة – محطة القطار – الاكياس تردم في الشاحنات وكان يذكرني صوتها – هكذا وانا ابتعد اكثر فاكثر – بطلقات الرشاش الذي كنا نرمي عليه وقد حميت سبطانته. وكان يبصق الرصاصات الاخيرة بقرف محدثاً صوتاً هشاً كالفشل المميت .. كان ذلك عام ١٩٤٨ .. حين افترقنا في اتجاهات غامضة مع هؤلاء ..

دمشق

م . زيتون

الجامعة السورية – كلية الحقوق